مدخل ...

استهداف الرءوس اليانعة

د. نادر سلسيلى

«الهجوم أفضل سبل الدفاع»، نظرية نابليونية أثبتت نجاعتها فى ساحات القتال، بمثل ما أثبتتها فى ساحات اللعب. فتبناها قادة عسكريون حاذقون، أرادوا أن يربحوا معاركهم على أرض أعدائهم، كما تبناها مدربو الكرة، الطامحون إلى حصد كؤوس البطولة، والصعود إلى منصة التتويج.

لما كان ذلك كذلك، وجدنا دولاً عظمى تتبنى النظرية النابليونية، بعدما ألبستها ثوبًا آخر (حتى لا تكون مضطرة للاعتراف للفرنسيين بحقوق الملكية الفكرية!)، أسمته: «الضربات الاستباقية الإجهاضية». وعلى الرغم من أن «بابا روما» يرى الإجهاض فعلاً محرمًا، فإن «بابا واشنطن» لا يشاطره الرأى نفسه، جاعلاً من الضربات الإجهاضية عقيدة إستراتيجية لإمبراطوريته، التى لا ينازعها أحد هيمنتها على العالم، شرقًا، وغربًا.

إلى ذلك رأينا «حاخامات تل أبيب»، يتبعون «أباهم»، الذى فى البيت الأبيض على الدرب نفسه. وإن اختلفت الوسيلة، باختلاف العدو المستهدف. فرأينا فى عدسة التصويب «الحاخامية»، رءوسًا لقيادات فلسطينية، سياسية، وعسكرية، وثقافية، لا رءوسًا لدول، كما هى الحال فى العدسة الأمريكية. إذ أن الفلسطينيين لا يمتلكون دولة يمكن أن تستهدفها «إسرائيل»، فتحول التصويب، آليًا، إلى الكوادر القيادية، التى بإمكانها أن تجعل من حلم الدولة حقيقة معاشة، على الوطن الذى يمتلك «حاخامات» واشنطن، وتل أبيب،

ومعهم «بابا» البيت الأبيض، إصراراً لا يحيد على أن يبقى نازفًا على «جلجلة إسرائيل». فيما نكتفى، نحن أهل الضحية، بمحاولاتنا اليائسة، حتى لا نغرق فى بحر الظلمات، الذى صنعته دموع مريم المجدلية على مسيحها «الفلسطينى» المصلوب!

لا نذهب بعيدًا عن فرنسا، ونابليوناتها، وأمثالها. فنسمع الفرنسيين يتمثلون بمقولة: « فتش عن المرأة». ما عدله المحققون الجنائيون، بخبراتهم، فيما بعد، ليصبح: «فتش عن المستفيد، تعرف الجناة». وعليه، تتبعنا خيط الدم الفلسطينى السيال على الأرض الطهور، وخارجها، فوجدناه، فى كل مرة، وحين ينتهى التحقيق الهزلى إلى اعتبار الجانى مجهولاً، يصرخ مشيراً لهم بإبهامه الحمراء إلى المستفيد: يد مجرمة حولت اسم نبى الله يعقوب (إسرائيل)، من علم على الحكمة، اسمًا لدولة، حفرت اسمها الدنس، بعظام ضحاياها، كصاحبة السجل الأكثر سوادًا فى هذا المضمار. «دولة»، لا ترى بأسًا فى أن تعمل وفقًا لـ «مبدأ»، الحجاج بن يوسف الثقفى، فلا ترى فى كل قائد فلسطينى، أو ناشط فى المقاومة، سوى «رأس» فلسطينية، أينعت. وعلى «إسرائيل»، قطافها!

ما الذى يجمع بين الأسرى المصريين، الذين تم إطلاق الرصاص على بعضهم، فيما تكفلت المجنزرات بطحن عظام البعض الآخر، وبين الـ ٣٤ ضابطًا مصريًا الذين قضوا فى رحلة «مصر للطيران» رقم ٩٩٠، فى ٣١/ ١٠/ ١٩٩٩!، ما هو القاسم المشترك بين غسان كنفانى، والكمالين، ناصر وعدوان، ومحمد يوسف النجار، وخليل الوزير (أبو جهاد)، والإعلامية المصرية اللامعة سلوى حجازى، والصحافى البريطانى ديفيد هولدن، والصحافى الجزائرى محمد بوضيا، ود. أنيس صايغ، ود. عبد الوهاب الكيالى، والمقدم مصطفى حافظ، ود. سميرة موسى، ود. يحيى المشد، ود. جمال حمدان، ود. سلوى حبيب، ود. مؤيد حسن ناجى، ود. باسل الكبيسى، وعالم الصواريخ الألمانى، فولفانج ميلز، وعالم الصواريخ المصرى د. سعيد بدير، وأهالى دير ياسين، وقبية، وكفر قاسم، والسموع، وجنين، وصبرا وشاتيلا؟! ود. ثابت ثابت، ويحيى عياش، وفتحى الشقاقى، وأبو على مصطفى، وحسين عبيات، وأطفال

مدرسة بحر البقر الابتدائية، فى دلتا النيل، وعمال مصنع «أبو زعبل»، ومعامل تكرير البترول فى الزيتية، بالسويس، والأطفال والعجائز الذين لجئوا إلى «الملجأ الآمن»!، التابع للأمم المتحدة فى قانا اللبنانية ؟!

ما الذى يجمع بين كاتب مثل كنفانى، وشاعر مثل كمال ناصر، وباحثين مرموقين مثل صايغ، والكيالى، وعلماء أفذاذ مثل موسى، وحمدان، وميلز، وبدير، ومذيعة وشاعرة رقيقة، مثل حجازى، وعمال أبى زعبل، وأطفال قانا، وبحر البقر، وبين على حسن سلامة، قائد قوات الـ ١٧، وبين محمود أبى هنود، وصلاح شحادة، ورائد الكرمى، وبين اللورد موين، والكونت برنادوت؟!

إن ما يجمع بينهم كثير، لعل أول ما يجمع بينهم أنهم «بشر»، كرمه ربه، ومنح لحياته صفة القداسة، فجعل من قتل نفسًا بغير حق، كأنما قتل الناس جميعًا. ويجمع بينهم أنهم شكلوا حلقات فى السلسلة الإجرامية، التى قام بـ «بطولتها» حفنة من أحط من ينتسبون، زورًا، إلى دنيا «البشر». يجمع بينهم أنهم لاقوا حتفهم بيد بدت فى إثمها، الذى لا تخجل منه، بل على العكس، تراه مصدرًا للفخر!، علمًا على العدوان، المستتر بدعاوى زائفة، وأحيانًا مضحكة! كتلك التى سوَّغ بها مجرم الحرب الشهير، موشيه ديان، جريمته فى بحر البقر: «ربما كان المصريون يخفون أسلحتهم فى مدارس الأطفال»!!

على الدوام كان هناك نيسان / إبريل، حيث تزهر الأرض، بأمر ربها، فتبدو بستانًا مزدانًا بالألوان، كل الألوان، فيما كان لحفنة الأشرار، رأى آخر، بأنه نسبة للون الأحمر، إلى الحد الذى يرضى رغائبهم المريضة، ولا أسهل من أن يكون ذلك بدم عربى، ليس هناك أرخص منه، فى «شريعة» من يعتبرون العرب «صراصير فى زجاجات مغلقة»!

فى كل مجزرة، كان هناك نيسان، من دير ياسين (١٩٤٨)، إلى بحر البقر (١٩٧٠)، إلى الفردان (١٩٧٣)، إلى تونس (١٩٨٨)، إلى قانا (١٩٩٦)، وصولاً إلى جنين (٢٠٠٢). وفى كل مجزرة، فردية أو جماعية، كانت هناك

الدعوى المجرمة، التى تبرر اقتراف الإثم، الهاجس الذى يراه المجرمون «قدس أقداسهم»: الأمن. الذى يشبه الحرباء فى تلونه، فلا يثبت على حال، أو وصف.

ثمة سؤال يطرح نفسه ها هنا: هل نحن إزاء نسخ عن «دراكيولا»[1]؟! يحملون أسماء مغايرة: مثل شامير، وشارون، ونتنياهو، وباراك، وبيريس، ورابين، وموفاز، ومئير، وإشكول، وبن جوريون، وشاريت، وبيجن، وديان، وغيرهم. والإجابة: لا؛ لأن الاستنساخ لم يصل، بعد (وندعو الله ألا يصل، أبدًا)، إلى استنساخ مصاصى الدماء. ما يجعل الاحتمال الأقرب إلى الواقع أننا إزاء «دراكيولات» آخرين، لا نسخ عن «دراكيولا»، يغتذون بالدم (أين منهم من أكلوا فطيرة العيد المعجونة بدم الأطفال فى باب توما، الدمشقى؟!)، ولا شىء سواه. خاصة لو كان هذا الدم «الشهى» ينزف من أدمغة منحتها المشيئة الإلهية، ما لم تهبه لسواها من بنى يعرب بن قحطان، الموهبة العلمية الفذة.

إن «إسرائيل»، التى تعرف جيدًا كيف زرعت نفسها، ورمًا سرطانيًا فى الجسد العربى، تعرف ـ أيضًا ـ كيف تبقى فى هذا الجسد. ما جعلها لا ترى مستقبلاً لها إلا عبر دائرة تصويب، تتجه ـ بشكل آلى ـ إلى ما يمكن تسميته، على سبيل غير الساذج: كرات الدم البيضاء، (ما أقلها فى الجسد العربى، وبخاصة فى قلبه الفلسطينى)، التى تمثل الجهاز المناعى، الذى يقف حجرة عثرة، دون تمكن «إسرائيل» من افتراس ما تبقى من حيوية فى الجسد العليل، والاستفراد به، بعد تحييد أسلحته المناعية، المسئولة عن مقاومة هذا السرطان، ومنعه من التمدد، فى مرحلته الأولى، ومن ثم الوصول إلى القضاء عليه، قضاءً مبرمًا، فى مرحلة لاحقة، يستعيد معها الجسد العربى عافيته.

تدرك إسرائيل، هذا جيدًا، ربما أكثر من كثيرين فى الوطن العربى، عملوا على إشاعة اليأس فى جنباته، وكأن «الهزيمة التاريخية» قدرنا، الذى لا نملك منه

---

(١) مصاص الدم الشهير، الذى كان يغتذى من مص دماء ضحاياه. ورغم أن البعض يعتبره مجرد أسطورة، فإن رومانيا تحتضن قلعة دراكيولا، التى يؤمها السياح.

فكاكًا، فشعورها الطبيعى هو شعور اللص الذى لا يهنأ له بال، ولا يستطيع التلذذ بما سطا عليه، إلا بعد تصفية كل ما من شأنه أن يعكر عليه «صفو» استمتاعه بما سلبه من أصحابه. وعليه، امتدت اليد الآثمة، التى سطت على فلسطين، لتغتال كل الزهور التى تتفتح. فمن مصلحة «إسرائيل» أن يبقى الوطن العربى «صحراء لا تنبت الزهور». وإن كان ليس لديها ما يمنع أن تحول الصحراء، بفعل زخات السيل الذى لا يجد من يجعله ينفع الناس (مع وجود «قيادات»، تحتاج إلى من يقودها)، إلى مستنقع. عن يقين راسخ، بأن المستنقعات ـ كما الصحراوات ـ لا تنبت الزهور!

سجلت «إسرائيل» أهدافها كافة فى مرمانا، الذى يبدو كما لو كان بلا حارس، يقوم بحمايته. ففى كل مرة، يتفتح فى الصحراء العربية نبت حسن يغفر لها، (ولنا) كل هذا الزبد الذى يذهب جفاء. ثمة يد «إسرائيل» التى طالت، حتى نالت من كل أوطان العرب، من خليجهم إلى المحيط، لتقطف أزهارنا النادرة. لتبقى حسرة فقدها فى قلوبنا، ومرارتها فى حلوقنا. حتى تتحفنا اليد «السخية» بضحية جديدة!

دعونا، الآن، نجرب القفز عبر أسوار الزمن الذى نعيشه، عائدين إلى الوراء قليلاً، وبالتحديد إلى العام الذى شهد بروز أحد المحاور الأهم للأيديولوچية الصهيونية، المستندة إلى التصور الدينى اليهودى، متمثلاً فى كلمة «جوى» بمعنى غريب، التى تجمع على «جوييم»، أى أغراب/ أغيار، وهم كل من عدا اليهود! حيث اكتملت دائرة الرؤية الثنائية الاستقطابية الحادة، التى تجعل من اليهود، واليهود فحسب، «معسكر الخير»، فيما كل من عداهم «محور الشر»، بتعبير الأصولى الإنجليكانى، جورج بوش الصغير!

إن تقسيم العالم إلى «يهود» و«جوييم»، يأخذ طابعًا إجراميًا، فى كلمات الحاخام موشيه بن صهيون، الذى يفسر «التلمود» بطريقة تسوِّغ القضاء على الفلسطينيين، واحتلال كل فلسطين «أرض إسرائيل»، كما يدعى. فيما «يتطوع»، حاخام القيادة المركزية الإسرائيلية، أبراهام أفيدان بالتأكيد لجنود جيش

الدفاع الإسرائيلى، على أنه «مصرح لكم، بل من واجبكم(!)، طبقًا للشريعة أن تقتلوا المدنيين، حتى لو كانوا من الخيرين» (!)، ولعل الأصوب أن تكون العبارة «لأنهم من الخيرين»! وهذا ما لا ينسى الحاخام أن «يزين» به وطنية كل «جنود يهوه»، مقتطفًا ما ورد فى «التلمود»: «ينبغى عليك أن تقتل أفضل الأغيار»، وهنا، نرى الحاخام وهو يقفز، كبطل فى المائة متر حواجز، من مربع العنصرية، الذى كان مبتدأه، إلى مربع أكثر تعبيراً عن «روح إسرائيل»، الدنسة، هو مربع «الإبادة الشاملة».

لا ندرى هل هذا نزوع «خطرى»، إلى العدوان، يأخذ على الصهاينة بمجامع نفوسهم، أم أنها «الأيديولوچية» الصهيونية، التى تعيد صياغة أرواحهم، على النحو الذى نراهم به الآن وكأنهم مجردون من كل ما يمت للإنسانية بصلة. بعدما خلعت الدعاية الصهوينة، التى تبز كل منافساتها فى كذبها القراح، التى تتسع دوائره، يومًا بعد آخر، حتى ابتلعت (هكذا خيل للصهاينة) وجود الشعب الفلسطينى، زاعمة أن فلسطين «أرض بلا شعب»، اختص بها الله عبر وعده المزعوم «شعبه المختار»! ما علق عليه، ساخراً، بابا الأقباط فى مصر، الأنبا شنودة الثالث بأن «اليهود احتلوا فلسطين بوعد من اللورد بلفور، لا بوعد من الله»!

هكذا غيب الفلسطينى، عمداً، عن المشهد، الذى يقع فى بؤرته، وإذا حاول هذا الفلسطينى أن يثبت لمن يدعون غيابه أنه موجود، ليس هذا فحسب، بل يقاتل دفاعًا عن وجوده، فلا بأس من إلصاق تهمة «الإرهاب» بالذى يدافع عن وجوده ضد من يحاول اقتلاعه من جذوره. ومن ثم، تصبح الطريق ممهدة أمام تغييبه، عبر اغتياله، والأفضل أن يتم اغتيال «الرءوس» التى تقود الشعب الفلسطينى فى نضاله المشروع، لنيل حقوقه، التى لا تسقط (كما الجرائم) بالتقادم. وهذا ما لخصه المعلق العسكرى لصحيفة «هآرتس»، أليكس فيشمان، فى معرض تعليقه على عمليات الاغتيال الميدانى، التى طالت ١٧١ من نشطاء «انتفاضة الأقصى والاستقلال»: «لكى تتم تصفية (الخلايا السرطانية)، «يجب الوصول إلى الرأس». التى ينبغى حصدها، أولاً بأول، حتى يبقى الشعب

الفلسطينى، ومعه الشعب العربى، الذى يعد ما يربو على ربع بليون «إنسان»، من دون رءوس. ومن ثم من دون عقول تبدع، وعيون تبصر مزالق الخطر، وتتوقاها. ومن دون آذان تسمع وقع خطى القتلة، وهى تقترب لتقترف جريمتها. ومن دون ألسنة، تثير الوعى بالحق المسلوب، وضرورة المقاومة حتى آخر رمق، لاسترداده من يد مغتصبيه.

لا يعنى هذا أن الصهاينة يكتفون بقطف «الرءوس» الكبيرة لدى الشعب الفلسطينى، إذ لا يوجد ما يمنع من «تطعيم» وجبة مصاصى الدماء ببعض الدماء «العادية». مثل أولئك الفلسطينيين الخمسة، الذين اغتالهم جنود «جيش الدفاع الإسرائيلى»، بدم أبرد من ثلج سيبريا، فى أحد مداخل البناية التى يقع فيها «بنك القاهرة ـ عمان». عاصمة الحل السلمى العرقوبى، يحمله لنا جودو، لا يجىء. خمسة رجال، ربما كانوا آخر من استطاعت أن تحوى حقًا منهم غرفة التبريد فى مستشفى رام الله، قبل أن يرص العشرات فى مقبرة جماعية فى «حديقة» المستشفى!

لأن المريب، كما قالت العرب، يوم كانت الحكمة تتدفق أنهارًا تروى صحراواتهم، «يكاد أن يقول خذونى»، سمعنا أحد ضباط وحدة المستعربين (دوفدفان)، التى تقف خلف معظم عمليات الاغتيال فى فلسطين المحتلة، يقول، بعد تسريحه: «لا يجب اعتباره (الفلسطينى المغدور به)، مغتالاً، أنا لست قاتلاً مأجورًا للمافيا»! متناسيًا بأن «دولته»، التى يوهم نفسه بأنه يخدم عرضها الدنس، هى علم على الإجرام. وطالما قدمت نفسها لقوى الهيمنه الغربية، وفقًا للقانون المافيوى الشهير: «بندقية للإيجار». وبالتالى، فضابط الدوفدفان، كما دولته، قاتل مأجور. من دون أن يمنع هذا من أن ينفذ عملية لحسابه الخاص، عندما يتطلب الأمر ذلك. فالذى يبتلع وطنًا بأكمله، لن يغص بإنسان، أيًا كان. ولن يعدم القاتل المأجور وسيلة قذرة، ليتم «مهمته»: وسيلة قد تتعاظم حتى تصل إلى صاروخ تطلقه الإف ـ ١٦ (فخر شركة لوكهيد مارتن الأمريكية)، على سيارة نقل «الهدف»، وقد تتواضع حتى تصل إلى رسالة بريدية مفخخة.

لم تختلف «ذهنية» «وسلوك قادة عصابات» «الأرجون»، و«شتيرن»، و«هاجاناه»، عن قادة «دولة إسرائيل»، التى باهى باراك، ذات يوم، بأنها «فيلا وسط الأحراش (العربية). فالفلسطينى، كما زعمت، «الرجل الوحيد فى إسرائيل»، على حد وصف هنرى كسينجر، للعجوز الشمطاء، جولدا مائير، «ليس له وجود». ومن ثم، فإن قتله «مباح»، بل «مطلوب»، طالما أن القتل من العقاب، بل يجد الصهيونى القاتل فى نفسه «نشوة» الامتثال لتعاليم «الآباء»، يستوى فى ذلك من يجدون أنفسهم أتباعًا لمنظر اليسار الصهيونى، دوف بير بورخوف (١٨٨١ـ١٩١٧)، الذى غادر إلى الجحيم، من دون أن تكتحل عيناه برؤية توقيع اللورد بلفور على «وعده» الشهير، وبين من يجدون أنفسهم، أكثر فيما نظّر له «نبى» التشدد الصهيونى اليمينى المعروف، فلاديمير جابوتنسكى. وبين من يقتفون أثر جولدا مائير، التى قالت إن كراهيتها للعرب: «تعود إلى أنهم يجبرون الشباب (الإسرائيلى) على قتلهم»!

إن إشاراتنا التى لا تكل إلى المواثيق الدولية، التى قدست الحياة، وجعلت الحق فى الوجود أحد الحقوق التى لا يمكن لأحد أن يمنع منها بنى البشر، دون تفسير، حتى يكون بمقدورهم التمتع ببقية الحقوق. تعنى أننا نستمسك بأهداف «مواثيق»، لا يحترمها العدو الصهيونى، ولا يلقى لها اعتباراً، كونها لا تساوى الورق الذى كتبت عليه (دعونا نفترض ـ جدلاً ـ بأنها تساوى ثمن الحبر الذى كتبت به). واحترامنا لهذه المواثيق لا يمنعنا من التأكيد على أنها لا تثير سوى الأسى، والمرارة، من دون أن تبث الطمأنينة فى قلب الخائف، عندما يصادفه نص، لن يحميه من «الغول» الذى يترصده، فى يقظته، وفى منامه.

ليسمح لنا القارئ بأن نطوف به فى رحلة خاطفة، لن تستغرق أكثر من بضعة أسطر، نلقى خلالها نظرة سريعة على حيثيات الحكم الذى أصدرناه بحق الصهاينة. رغم يقيننا الكامل بأن «إسرائيل» لا تحتاج إلى «جرس» نعلقه فى عنقها، حتى ينتبه العالم الغافل إلى جرائمها، التى زكمت روائحها الدنسة، أنوف الجميع. فالعالم، ودعونا نتواضع قليلاً، لنقول: معظم العالم، يعلم جيداً سجل «إسرائيل» الأسود، فى هذا المضمار الدموى، الذى «لإسرائيل» فيه قصب

السبق. وإذا كان ثمة منافس لها فى هذا المضمار، فما من شك أن هذا المنافس لن يكون سوى حليفها الإستراتيچى (الولايات المتحدة الأمريكية)، فالعلاقات «الحميمة» بين «المؤسسة»[1] و«الشركة»[2]، أوضح من أن تحتاج إلى براهين لإثباتها. لأن القواسم المشتركة بين المجرمين سرعان ما تجمع (إن لم توحد) بينهم. ولم تخرج الموساد والـ C.I.A عن هذا القانون، كما فعلتا، مرارًا، مع قوانين أدمنا انتهاكها. فالقانون الطبيعى، بنصوصه التى لا تملكان تغييرها أو القفز عليها، ربما يكون القانون الوحيد الذى تجرى عليهما، معًا، أحكامه.

وعلى ذلك فلا نطمح أن يكون ما نكتبه هنا جرسًا يوقظ النوام، إن بالرغبة المجردة فى النوم (التى يجد كثير من البشر أنفسهم فريسة لها، من دون سبب يعزونها إليه)، أو بفعل «العقاقير المنومة»، التى قد يبتلعها كثيرون، فى شكل أفلام سينمائية، ومسلسلات تليفزيونية، ومقالات صحافية، ومقابلات إذاعية، وما إلى ذلك من «المخدرات الفكرية».

هذا ما استطعنا تقديمه، فى هذا المدخل، الذى يبقى، بعد كل شىء، مجرد طرقة على الباب الموصد. فإن اكتفى البعض، فحسبه ذاك، وإن لم يكتف بعض آخر، فليس ثمة بد من دفع الباب، ليجد السبيل أمامه ممهدة، وجياد الرحلة مسرَّجة، والله معه.

***

(١) الموساد، كما يطلق عليه العاملون فيه.

(٢) وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية C. I. A، كما يحب العاملون فى الوكالة الإشارة إلى محل عملهم.

الهوامش:

١ ـ د. عبد الوهاب المسيرى، **الأيديولوچية الصهيونية: دراسة حالة فى علم اُجتماع المعرفة**، الكويت: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٦ . ، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٢، ص ٢٧٦- ١٧٧ .

٢ ـ أليكس فيشمان، يجب الوصول إلى الرأس، **هآرتس**، ٢٧/ ٧/ ٢٠٠٢، وردت ترجمتها فى: **القدس العربى** (لندن)، ٢٨/ ٧/ ٢٠٠٢.

٣ ـ العربى (القاهرة)، ٢٣/ ٢/ ٢٠٠١.

٤ ـ موسى البديرى، الحوار الفلسطينى ـ «الإسرائيلى» من الانتفاضة إلى المفاوضات، **مجلة الدراسات الفلسطينية** (بيروت)، العدد ١٢، خريف ١٩٩٢، ص ١١٢ .

***

obeikandl.com